

المحاضرة الرابعة المعرفة عند ابن خلدون

قبل أن يولد علم الاجتماع الغربي بقرون، وضع المفكر والمؤرخ التونسي عبد الرحمن بن خلدون (1332-1406م) في مقدمته الشهيرة أسسًا لتحليل العلاقة بين الفكر والوجود الاجتماعي. لا يمكن الحديث عن نشأة علم اجتماع المعرفة دون الإشارة إلى هذا العمل الريادي، الذي يعتبره العديد من الباحثين نقلة نوعية في فهم التاريخ والمجتمع. يذهب بعض المفكرين المعاصرين، مثل "ساطع الحصري"، إلى حد القول بأن الكتاب السادس من المقدمة يمكن اعتباره بحق "علم اجتماع للمعرفة" بحد ذاته.

في السياق العربي، قدم ابن خلدون في كتابه "المقدمة" تصورًا مبكرًا لـ "علم العمران البشري"، موضحًا كيف تؤثر الظروف البيئية والاجتماعية (البداوة مقابل الحضارة) في أنماط التفكير والعلوم والآداب، معتبرًا أن المعرفة التاريخية تتطلب "تفسيرًا صحيحًا" يستند إلى قوانين الاجتماع البشري. وهذا يتوافق إلى حد بعيد مع ما أشرنا إليه آنفًا في تعريف علم اجتماع المعرفة. يمثل ابن خلدون إرهابًا مبكرًا واستثنائيًا لسوسيولوجيا المعرفة.

1. العلم كصناعة

في الفصل السادس من المقدمة، يطرح ابن خلدون رؤية مادية وعملية للمعرفة، حيث يعتبر أن "تعليم العلم صناعة". ويرى أن الفرق بين الشخص الذي يمتلك العلم والشخص الذي يفتقر إليه يكمن في حصول "الملكة". والملكة عند ابن خلدون هي صفة راسخة في النفس تحصل عن طريق التكرار والممارسة، وهي تشبه تمامًا الملكات الحرفية مثل النجارة أو الخياطة.

هذا الطرح الخلدوني يسحب القداسة عن المعرفة العلمية ويعيدها إلى سياقها الاجتماعي؛ فالعلم لا يحصل بالإلهام وحده، بل يفنق إلى "سند" تعليمي ومشاهير من المعلمين يورثون هذه الملكات للأجيال اللاحقة. ومن هنا، يربط ابن خلدون بين ازدهار العلوم وازدهار العمران؛ فكلما كان المجتمع أكثر تحضرًا (حضر)، زادت حاجته إلى التخصص وتعددت الصنائع، مما يؤدي إلى نضوج العلوم وتطورها.

"لقد أرجع ابن خلدون فساد مناهج الفلاسفة، إلى أنهم رأوا في المنهج العقلي الكفيل بوصولهم إلى الحقيقة، وهذا في أري ابن خلدون غير الصواب، فالواقع التجريبي هو أساس المعرفة، وأن: "نقطة البداية في معرفة الطبيعة هي اللجوء إلى الواقع والتجربة، وقد سعى إلى تأسيس علم طبيعي قائم على المشاهدة المحسوسة، ومتصل بالتجربة، ولكل ما يشهد له الحس الظاهري". (معيزي، 2017، ص 317)

يقوم تحليل ابن خلدون على مفهومه المركزي "العصبية"، -العصبية تؤثر في نوع المعرفة المنتجة في الجماعة- مفهوم "العصبية" يشير إلى الشعور بالانتماء والتضامن الجماعي أو الوعي الجماعي الذي يربط أفراد جماعة ما، سواء كانت قبلية أو دينية. يرى ابن خلدون أن العصبية القوية ضرورية ليس فقط لتأسيس الملك (الدولة) ولكن أيضًا لحماية الدعوات الدينية والأفكار الجديدة. فالدعوة الدينية، مهما كانت صحيحة في ذاتها، لا يمكن أن تتجح وتنتشر دون أن تحملها "عصبية" قوية تدافع عنها. هذا التماسك هو قوة الدفع التي تحمل الجماعات إلى السلطة وبناء الدولة. ولكن المذهل في فكره هو ربطه بين طبيعة المعرفة المنتجة والمرحلة التي تمر بها الجماعة أو الدولة.

أكد ابن خلدون، على دور التماسك الاجتماعي (العصبية) في تطور المعرفة. وجادل بأن المعرفة ليست مجرد مسعى فردي، بل هي متأصلة بعمق في النسيج الاجتماعي والسياق التاريخي للمجتمعات. وقد أرست أعماله الأساس لفهم كيف تشكل التجارب الجماعية التقاليد الفكرية. وفقا لابن خلدون "المعرفة الحقيقية منحصرة فيما يعقل من العلوم على تحقيق" (ابن خلدون، 1958/1377، ص. 95)

2. المحددات العمرانية للمطالب المعرفية

يقيم ابن خلدون مقارنة دقيقة بين نمط المعرفة في "العمران البدوي" و"العمران الحضري". فالبدو، الذين يقتصرون على الضروري من العيش، تكون معارفهم مرتبطة بالبقاء، والفروسية، والأنساب، وهي معارف تعتمد على الفطرة والتجربة المباشرة. أما الحضري، فقد انتقلوا من مرحلة الضروري إلى مرحلة "الكماليات" والترفع، وهنا تظهر العلوم المعقدة مثل المنطق، والفلسفة، والرياضيات، والعلوم الشرعية المتخصصة.

وفقًا لمعتوق انطلق ابن خلدون، من فكرة مركزية مفادها أن "الصلة القائمة بين العلم (كل معرفة علمية) والمدنية هي صلة موضوعية، وهنا لم تعد العلوم دون مجتمع، ولكن علوم في مجتمع، فالمعرفة تكثر حيث يكثر العمران وتعمق الحضارة، والسبب وراء ذلك أن الصنائع (ممارسة المعرفة) إنما تكثر في الأمصار، فمتى فضل أهل العمران معاشهم، انصرفوا بعد ذلك، إلى التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع (معتوق، 1982، ص 13) يؤكد ابن خلدون أن المعرفة ليست مطلقة أو إلهامية بحتة، بل تتشكل بفعل "العمران" (الحضارة والتنظيم الاجتماعي).

العلوم تزدهر في المجتمعات الحضرية المستقرة (العمران الحضري) حيث توفر الثروة والسكان والاستقرار موارد للتخصص والنقل المعرفي، بينما تتراجع في المجتمعات البدوية أو المنهارة بسبب نقص "العمران". فالعلوم إنما تكون في المدن ذات العمران الوافر... ولا مدينة اليوم أوفر عمرانًا من القاهرة... وهي ينبوع

العلوم والصنائع". إذن، "العلم والمعرفة يعيشان في علاقة موضوعية مع المجتمع وينموان مع المدنية ويتقهران مع نقيضها، فعالم الفكر ليس مستقلاً عن الواقع. من هنا لا يمكن اعتبار العلم مستقلاً عن الواقع الاجتماعي، بل هو يشكل مجموعة الخبرات المتراكمة ضمن أشكال متقدمة من المجتمع". (معتوق، 1982، ص 16) فما يميز "الحياة الحضرية هو العمل الصناعي كونه يمثل المعرفة الحقة، حيث تلتقي اليد والفكر في تفاعل متبادل، فالفكر الذي ينتج الصنائع ليس بناءً فوقياً مبتوراً عن الواقع، وإنما هو فكر اجتماعي، في المرحلة الأولى من الحضارة يكون التركيز على الصناعات الأساسية، أما في المرحلة الثانية، فيتجاوز فيها الضروري إلى الكمال منه، فيتوسع للفكر ليتناول قضايا المجتمع النظرية". (الجبوري، 2012، ص 223-224)

طرح ابن خلدون سؤال على نفسه مفاده: "لم نأقلوا العلوم في الإسلام هم في معظمهم من غير العرب؟ جوابه عن سؤاله، أن الجماعة الإسلامية لا تعرف العلوم ولا المهن بسبب واقعها المبتذل والبدوي، حيث أن البدوي ليس لديه من هم حقيقي سوى الذي يتعلق باستمرارية حياته. فما ينفعه لا العلم ولا المهن" (معتوق، 1982، ص 14) وأن "للمعرفة درجات، كما للمدنية درجات، فبقدر ما يتمدّن المجتمع الحضري، بقدر ما تتقدم المعارف والعلوم والعكس صحيح". (معتوق، 1982، ص 17) يلاحظ ابن خلدون أن ممارسة الصنائع المعقدة في المدن تؤدي إلى صقل العقل البشري؛ فالإنسان الذي يعيش في بيئة حضرية يبدو وكأنه أدكى من البدوي، ليس بسبب تفوق بيولوجي، بل لأن "رونق الصنائع والتعليم" يترك أثراً في النفس يكسبها عقلاً جديداً واستعداداً لقبول معارف أكثر تجريداً. وهذا يقود إلى استنتاجه الشهير بأن التطور المعرفي هو نتيجة للبيئة الاجتماعية وليس سبباً لها.

فضلاً عن ذلك، يتساءل ابن خلدون من جديد حول: لم كان سكان البلاد العربية في المشرق (آنذاك) أكثر استعداداً لاستيعاب العلوم والمعارف من سكان المغرب العربي؟ جوابه عن ذلك، أن الاختلاف يعود إلى درجة تحضر البيئة الاجتماعية، على صعيد المعرفة بالذات، وعلى صعيد استعدادات أفراد المجتمع بالنسبة للمعرفة، إن التركيب الاجتماعي المهيمن (مديني عند عرب الشرق، وبدوي عند عرب المشرق) وبالتالي الشكل الاجتماعي يؤثر في المعرفة وهي بدورها تؤثر فيه". (معتوق، 1982، ص 17-18)

صنف ابن خلدون العلوم إلى "علوم عقلية" (دينية) تستند إلى الخبر (الوحي)، و"علوم عقلية" (فلسفية وطبيعية) يمكن للإنسان أن يصل إليها بفكره. الأهم من ذلك، هو إدراكه أن هذه العلوم ليست ثابتة، بل تتطور وتتغير مع تغير أحوال العمران والمجتمعات.

يرى ابن خلدون أن المعرفة ليست كياناً مستقلاً، بل هي نتاج للعمران البشري (أي المجتمع). في المراحل البدوية، تكون المعرفة عملية ومباشرة، مرتبطة بالحياة اليومية. أما عندما تستقر الجماعة وتتحوّل إلى دولة (مرحلة العمران الحضري)، يبدأ العقل في التجريد، وتظهر العلوم وتتفرّع، ويزدهر الفن والصناع. لكنه ينبه إلى أن الترف والحضارة الزائدة قد تؤدي إلى بلادة العقل وانحطاط المعرفة، لأنها تفقد ارتباطها بالواقع القوي الذي أنتجها. بهذا، يكون ابن خلدون قد أسس لفكرة أساسية في علم اجتماع المعرفة: البنية الاجتماعية (العصبية والدولة) تحدد شكل ومحتوى الإنتاج الفكري. إنه يقدم لنا نموذجاً تحليلياً يرصد التفاعل الجدلي بين الواقع الاجتماعي المادي (البداوة والحاضرة) والواقع الفكري.

اعداد د. فتيش وسيم